الفصل التاسع

التفسير الوظيفى للدراما الاذاعية والتليفزيونية

حين نتناول الدراما فى الاذاعة والتليفزيون من حيث الموضوع والشخصيات والأساليب من وجهة النظر الاعلامية والاجتماعية، نجد أن هذه الدراما تعتبر من الفنون الموضوعية وهى الفنون التى «تعبر عن المجتمع الذى تنبع منه فتؤثر فيه وتتأثر به»(١).

وتصور الدراما التليفزيونية والاذاعية (مجتمعا) من الشخصيات العديدة التى تتلاقى وتتصارع وتتجاذب وتتنافر فى بيئة اجتماعية تتحكم فيها عقلية جماعية مشتركة(٢).

ويؤكد فلاسفة الفن أن «للفن علاقات ضرورية بالدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها من ظواهر المجتمع، ولكن من المؤكد أن الفنان يستجيب للمصير البشرى استجابة خاصة تميزه عن كل من رجل الدّين وعالم الأخلاق والسياسى ورجل الاقتصاد»(٣).

إن ممارسة الفن وتقديره عمليتان فرديتان، فالفن يبدأ بوصفه نشاطا فرديا، وهو لا

(١) Lalo C.: **Nations d' Esthetique,** (Paris. P. U.F.S. me'ed.. 1964) PP. 76 - 78.

(٢) Raymon Bayer: **Trait d'Esthetique** (Colin. 1956) P. 159.

(٣) زكريا إبراهيم: **مشكلة الفن**، (القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٧٦) ص١٢٥ أيضا.
عبدالعزيز شرف: **التفسير الاعلامى للأدب العربى**، (القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٠) ص١١٧ - ١٣٠.

يلتحم بنسيج الحياة الاجتماعية إلا بقدر ما يستطيع المجتمع أن يتعرف على تلك الوحدات الخاصة من الخبرة، مستوعبا إياها فى صميم وجوده الجمعى.

ومعنى هذا أن الفن ليس ناتجا فرعيا أو ظاهرة ثانوية تترتب على الترقى الاجتماعى، وانما هو عنصر من العناصر الأصلية الهامة التى تدخل فى تركيب المجتمع نفسه(١).

ويرى «جيو» M.J. Guyau أن الفن لايخرج عن كونه نشاطا اجتماعيا تنحصر غايته فى الحياة أو الواقع نفسه. وحينما يقول «جيو» إن الفن هو «الحياة نفسها مركّزة» فإنه يعنى بذلك أن من واجب الفنان ألا يدع الحياة تطغى عليه، بل أن يظل معاصراً لها فى تقدمها المستمر، وأن يقف على أشكال الحياة الاجتماعية التى تذوب فيها الحياة الفردية. فالفن عنده اجتماعى فى نشأته، وغايته، وماهيته، ومعنى هذا أن الفن فى نظر «جيو» ظاهرة ذات طابع اجتماعى، لأن ما يتحكم فى الحياة الجمالية بأسرها إنما هو قوانين التعاطف الوجدانى، وانتشار العواطف من فرد إلى آخر.

ولهذا فإن «جيو» يرى أن الفن لاينطوى على ظاهرة (تشكيل ذاتى) فحسب بل هو ينطوى على ظاهرة تشكيل اجتماعى(٢).

ويمكن لدراسة الفن الإذاعى والتليفزيونى، والفن بجميع أنواعه أن تلقى ضوءاً كبيرا على الظواهر الاجتماعية، لأن وجودها يعتمد على نقل المعانى، والفن مهتم فى جوهره الحقيقى بالتعبير عن العواطف والأفكار ونقلها فى صور رمزية. ودراسة مايجب بالتعبير عن العواطف والأفكار ونقلها فى صور رمزية. ودراسة ما يجب على الفنان أن يقوله، وكيف يقول، وكيف تُستقبل رسالته من جانب الجمهور، يمكن أن تزيد من فهمنا لعملية الاتصال الاجتماعى الواسعة التى تجعل المجتمع شيئا ممكنا. وكذلك يمكن أن يكون الفنان المُبدع نفسه وسيلة مفيدة لدراسة التغير الاجتماعى والثقافى، لأنه غالبا ما يكون حساسا بدرجة زائدة لما وسيلة فى النظام الاجتماعى من توترات. ومن الراجح أن إنتاجه سوف يعكس إحساسه هذا. وهكذا يمكن أن تساهم الدراسة السوسيولوجية للفن ـ إذا أخذناها

(١) Read H.: **Art and Society**, (London, Faber & Fader, 1946) pp. 2 - 7.

(٢) Gayau M.: **L'Art au Point de vie Sociologique**, (Paris, Alcan, onzieme edition, 1930) PP. 3 - 21.

بمعناها الواسع لتشمل الفنان وجمهوره، والانتاج الفنى أيضا ـ فى فهم كل من البناء الاجتماعى والتغير الثقافى. على أنه يجب التّعليم بأن هذا الهدف بعيد لايمكن الوصول إليه إلا بعد التوصل إلى مجموعة من الأهداف الأكثر تواضعًا[١].

ومن الدراسات الحديثة المفيدة فى سوسيولوجيا الأدب؛ دراسة «لوفنتال» Lowen-thal بعنوان «الأدب وصورة الانسان». وتمثل هذه الدراسة تحليلا سوسيولوجيا لمختارات من الروايات والمسرحيات التى ألفها كتاب أوربيون فى الفترة من (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠) والقضية الرئيسية عند «لوفنتال» أن الكتاب يصورون بشكل مقنع ـ ومن خلال اختيارهم اللاشعورى غالبا للحبكة الروائية، ورسم الشخصيات، وتصوير البيئة، والتأكيد على القيم ـ علاقة الانسان بمجتمعه وعصره. وهكذا يمدّنا الأدب الإبداعّى بنوع من الوثائق التى تفيد فى دراسة البناء الاجتماعى والتغير الثقافى، إلا أن «لوفنتال» يتجاوز هذه النقطة ليدافع عن الرأى الذى مؤداه أن الكتاب المبدعين يتمتعون بحساسية عالية للتغيرات الأولى فى علاقة الانسان بمجتمعه، وغالبا مايعكسون هذا الوعى فى أعمالهم[٢]. وهكذا نجد إمعان النظر فى كتاباتهم يمكن أن يكون ذا أهمية خاصة لدارسى التغير الاجتماعى.

وتأسيسا على هذا الفهم، يتسنى لنا أن ندرس الدراما الإذاعية والتليفزيونية، كفن له وظيفته الاجتماعية، كما يتسنى لنا أن ندرس «موضوعات» الدراما بأشكالها المختلفة بهدف التعرف على مدى تعبيرها عن المشكلات المجتمعية.

والدراسة الاجتماعية للمضمون فى الدراما الاذاعية والتليفزيونية لاينبغى أن تقف عند حدود دلالات المضمون فقط، بل يجب أن تتسع لتشمل مدى اتساع الموضوع وعنصر الاستمرار فيه. فهناك موضوعات معينة تتعلق بجزء من الشعب فقط، وهناك موضوعات أخرى تعد مشتركة بالنسبة لطوائف الشعب جميعا، ولكنها لاتظهر الا فى حقبة معينة من تاريخ هذا الشعب. [٣]

---

(١) Barnett James: "**The Sociology of Art**" in Sociology today by Merton and oth-ers (eds Harper Torch book edition. N.Y.. 1965) PP. 197 - 214.

(٢) Leo Lowenthal: **Literature and the image of Man.** (Beaco Press. 1957) P.91.

(٣) وهذه الدراسة كانت محور رسالة د. سامية احمد على للدكتوراه عن «التمثيلية التليفزيونية ومشكلات المجتمع المصرى»

ففى فرنسا مثلا يمكن الحديث عن (أدب المقاومة) الذى ابتدعته أقلام الأدباء خلال فترة الاحتلال النازى لفرنسا. وقد يكون هناك أدب خاص بالحرب التى خاضتها فرنسا ضد الجزائر كما ظهر أدب المقاومة اثناء حرب التحرير فى الجزائر. (١)

غير أنه بالاضافة إلى هذه الموضوعات الوقتية، هناك موضوعات أكثر دواما وثباتا تكشف عن خصائص نفسية واجتماعية للجماعات الانسانية التى تعالج هذه الموضوعات فى رحابها.

ويمكن القول إن هذه الخصائص تتسم بقدر من الثبات النسبى مادامت تظل مادة للموضوعات الأدبية.

وفى الواقع فإن الدراسة الاجتماعية للموضوعات فى الدراما الإذاعية والتليفزيونية يمكن أن تمدنا بقدر كبير من فهم الجوانب الخفية التى «تحدثها عملية التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمعات، على نحو ما يتضح فى ثلاثية «نجيب محفوظ» (السكرية ـ قصر الشوق ـ بين القصرين). وإذا كانت هذه الأعمال بالذات تعد نموذجا للأعمال الأدبية التى يمكن أن ندرسها من وجهة النظر الاجتماعية، الا أن هناك فى الأدب المصرى المعاصر أعمال أخرى تزخر بالمواقف الانسانية والعلاقات الاجتماعية المتشابكة التى يمكن أن تكون موضوعا للدراسة والبحث..

الدراما والاتصال الاجتماعى:

إن الدراما الاذاعية والتليفزيونية كفن، ترتبط بوسيلتى اتصال جماهيرية هى الراديو والتليفزيون، ولهذا نطرح سؤالا يرتبط بالدراسة الاجتماعية والاتصالية فى وقت واحد: ماذا عن آثار الدراما الاذاعية والتليفزيونية كفن يرتبط بالاتصال الجماهيرى؟..

حين يتعرض «وشرام» للإجابة عن هذا السؤال، نجد أنه يذهب إلى أن للاتصال الجماهيرى تأثيرا شاملا، وذلك لسبب واحد وهو أنه يشمل المجتمع ككل، والمجتمع شأنه شأن أى وحدة اتصالية يعمل كمفسّر للرموز ومرمّز، فهو يفسّر الرموز البيئية من أجل

(١) راجع: المقاومة فى الأدب الجزائرى المعاصر للدكتور عبد العزيز شرف: ط٣ ـ بيروت دار الجيل ١٩٩٢

أبنائه، ويراقب المخاطر، ويتطلع إلى تحقيق الأهداف حتى يصل إلى اتفاق أو إجماع، وحينئذ يستطيع أن يضع سياسة فعالة ويحفظ التفاعل العادى للحياة الاجتماعية ويصونه، كما يساعد الأفراد على التمتع بحياتهم، ثم هو أيضا يرمّز الرسائل ويوجهها إلى المجتمعات الأخرى. فالأتصال الجماهيرى الذى يتمتع بقوة وفعالية يمكّن من مدّ الأبصار وتفتّح الآذان لإيصال الثقافة متمثلة فيما يكتب ويقال إلى آفاق جديدة، إنما يأخذ نصيبا كبيرا من المسئولية فى عملية الاتصال الاجتماعى هذه[1].

فالدراما الاذاعية والتليفزيونية فى ضوء هذا الفهم، تقدم للمجتمع مناقشات تربط الفرد الاجتماعى بالكلّ، كما تُقّدم أنماطا مرغوبة من السلوك، بحيث يمكن القول إن الدراما الاذاعية والتليفزيونية تساهم مع الاتصال الاجتماعى فى نقل الثقافة إلى مختلف قطاعات المجتمع بطريقة لاتحتاج إلى مهارة أو إعداد، فالأمى يستطيع أن يتابع التمثيلية الاذاعية أو التليفزيونية بدون جهد..

والدراما الاذاعية أو التليفزيونية تحاول فى بعض الأحيان أن تذهب إلى أبعد من وظيفة التسلية، فتسعى إلى التعبير عن أفكار وعواطف ليست مجرد انعكاسات تسجيلية للحياة اليومية. والملاحظ بالنسبة لمعظم وسائل التَسلية الجماهيرية أنها تسعى أساسا إلى الارضاء، والتسلية والتثقيف معتمدة على الحوادث المألوفة والأنماط الاعتقادية والسلوكية التقليدية. ولكنها تعمد فى بعض الأحيان إلى نقد، وتقييم وتقديم تفسيرات جديدة «للواقع الانسانى».

وهنا يمكن أن تكتسب طبيعة فنية. ولاجدال فى أن هذه الوسائل الجماهيرية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمجتمع المعاصر كأدوات للاتصال الاجتماعى[2].

المشكلات المجتمعية

فى الدراما الاذاعية والتليفزيونية:

تعنى التجربة الانسانية الدراما الاذاعية والتليفزيونية كفن معاصر تجسيد مشكلات المجتمع عن طريق توظيف العناصر الفنية للتمثيلية، وعلى ذلك تضح لنا الصلة الوثيقة

(١) محمود عوده: **أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى**، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١) ص٨٢.
(٢) محمد الجوهرى وآخرون: **دراسة علم الاجتماع**، (القاهرة، دار المعارف، ط (٤)، ١٩٨٢) ص٤٦٣.

بين التمثيلية التليفزيونية كفن وبين مشكلات المجتمع كموضوع أساسى تعبر عنه فى إطار مفهوم التغير الاجتماعى، ذلك أن هذه المشكلات هى نتيجة التغير الاجتماعى والتخلف الثقافى، كما أنها تعكس الاختلاف فى سرعة التغير بين عناصر المجتمع وخاصة بين السلوك وبين القيم التى تحدده. وتظهر المشكلات الاجتماعية فى المجتمعات الديمقراطية الديناميكية بحيث نجد أن التغير سريع وأن القيم الاجتماعية التى تحبذ العمل نحو تحسين الظروف تنمو بشدة وسرعة، وبذلك يمكن أن نحدد المشكلة المجتمعية بأنها «ظرف يعتقد أنه يبدد قيمة اجتماعية ويدرك على أنه يمكن تغييره بالعمل الاجتماعى البناء». إذن العناصر الثلاثة المكونة للمشكة المجتمعية هى: الموقف المجتمعى والحكم الخاص بالقيمة، والعمل المجتمعى المناسب(١).

هذه المشكلة المجتمعية هى جوهر الدراما الاذاعية والتليفزيونية، ذلك أنها كفن درامى تتفاوت فى سرعة تطويرها للأزمة من خلال الخطوط أو الظروف، والمشهد الدرامى هو أزمة من داخل أزمة، يساعد بجلاء على وضوح النتيجة النهائية. ومن الممكن أن نسمى التمثيلية التليفزيونية أو الدراما بوجه عام «فن الأزمات» كما أن القصة هى فن التطورات التدريجية(٢).

والمشكلات المجتمعية كمادة درامية، تتضمن مواقف يعتقد أنها تهدد القيم الاجتماعية، ولكنها قابلة للعلاج عن طريق العمل الاجتماعى. والتحلل الاجتماع عملية ينتج عنها انفصام الروابط التى تربط الجماعة، ذلك أن الجماعة تمارس وجودها عن طريق العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين أعضائها، فإذا ما قطعت هذه العلاقات فإن الفوضى الاجتماعية تكون نتيجة لذلك. فانتشار المشكلات المجتمعية معناه أن هناك مواقف

---

(١) Merrill F.E.: **The Study of Social Problems**, (Sociolegical Review, June 1958) PP. 251 - 262.

(٢) Archer William: **Dramatic and undramatic**, "in" Barett H. Charksn European Theories of the drama, (Crown Publishers 1947) P. 479.

(٣) د. سامية أحمد على: التمثيلية التليفزيونية ومشكلات المجتمع المصرى. رسالة دكتوراه كلية الاعلام جامعة القاهرة.

اجتماعية تهدّد القيم الأساسية للمجتمع فى كثير من النواحى مما ينتج عنه بلبلة فكرية وعدم تحديد سلوكى واختلاط فى الأمور والأهداف.

والدراما الاذاعية والتليفزيونية تعبر عن مشكلات المجتمع من خلال أربعة أقسام كبرى من أقسام «الصراع» أولها: الصراع الساكن، وثانيها الصراع الواثب، وثالثها الصراع الصاعد المتدرج فى بطء، ورابعها الصراع الدالّ من طرف خفى على مايـنتظر حدوثه.

والدراما الاذاعية والتليفزيونية تجد فى كل مشكلة مجتمعية لونا من ألوان الصراع، فعندما لايقوم عدد كبير من الأفراد بالأدوار الاجتماعية التى حددها لهم المجتمع، والتى يتوقع منهم فيها سلوكا معينا، يمكن تعريف ذلك بأنه صورة من صور «الصراع» بلغة الدراما. فالصراع «كفاح حول القيم، والسعى من أجل المكانة والقوة، والموارد النادرة، حيث يهدف الأفراد إلى القضاء على أعدائهم»[1]. فإذا نظرنا فى مجتمعنا إلى الدور الأساسى الذى يجب أن يقوم به الزوج فى النظام العائلى وجدنا كسب العيش وضمان المورد المالى الكافى للعائلة، فإذا ما عجز هذا الزوج عن القيام بدوره وبمسئولياته نتيجة للبطالة أو نتيجة أزمة اقتصادية، سبب هذا الموقف «مشكلة». كذلك المرأة المتعلمة التى لاتستطيع أن تحقق مايتوقعه منها المجتمع تجاه أسرتها. هذه الأمثلة وغيرها من عدم الاتساق فى البناء الاجتماعى ينتج عنها مشكلات مجتمعية. كما ينتج عنها مواقف صراع داخل التمثيلية التليفزيونية.

ولن يتسنى عزل الصراع والبحث عنه كظاهرة مستقلة، إذ أنه ليس فى العالم شىء منقطع الصلة بما حوله، أو منفصل عن النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه، وليس فى الوجود شىء يعيش من أجله فقط، بل كل شىء فى الوجود مكمّل لكل شىء آخر.

وفى وسعنا أن نتتبع الصراع فى أى شىء وفى أى مكان، ومن ذلك كمثال يوضح

(١) Coser L.A.: **The Functions of Social conflict** (the Free Press, 1959)

كيف تكون القيمة الاجتماعية محورا للمشكلة الاجتماعية وسببا للتغير الاجتماعي. أننا إذا نظرنا فى بعض المجتمعات إلى قيمة الأب فى نظر أولاده على أنه سلطة لايمكن مخالفتها، فإننا نجد أن هذه القيمة بدأت تواجه مواقف جديدة تهزها من جذورها نتيجة انتشار التعليم مثلا. فالأبن المتعلم قد يحاول أن يناقش أباه وأن يناقش اختياره لزوجته، وأن يحاول ممارسة هذا الاختيار بنفسه، وأن يحاول إدارة مسئولياته على أسس خاصة به. كل هذا يؤدى إلى أن تواجه القيمة الاجتماعية مواقف جديدة تهزها، وينتج عن ذلك مشكلة. «وقد تسبب القيم الاجتماعية تعويقا للحلول المقترحة للمشكلات المجتمعية[١].

والحدث فى الدراما الاذاعية والتليفزيونية يتحقق فى صورة مغامرة جماعية ناتجة عن تفاعل داخل العالم الصغير الذى يتألف من شخصيات التمثيلية. وإذا كان الشخص فى الحادثة العادية يبقى معزولا فى طبقته أو التى ينتمى اليها، فإنه ليس هناك حدث معزول فى التمثيلية، بل أنه يمارس تأثيرات مباشرة فى الشخصيات وفى المجتمع الذى يعيش فيه. فعالم التمثيلية قد يكون صورة للعالم الكبير، للمجتمع الكبير لاعزلة فيه.

والأساس الأول لجودة الشخصية فى الدراما الاذاعية والتليفزيونية ألا تفقد هذه الشخصيات صلتها بالمجتمع الحقيقى. أما الأساس الثانى فهو وحدة الشخصية فى عمقها أو ما سماه «أرسطو» التكافؤ المنطقى ـ كما تقدم ـ وليس معنى الوحدة هنا سطحة الشخصية، لتمثل فكرة تجريدية؛ ولكنها الوحدة التى تسمح بأنواع من الاختلاف تتسق مع طبيعة الشخصية فى مجرى الحدث. والتمثيلية التليفزيونية والإذاعية كفن درامى تتطلب بطبيعتها تعدد الشخصيات، ولكل منها وجوده المستقل، ولكن هذا الوجود لن يتحقق بعزل كل شخصية عن الأخرى فلولا وجود «بولوينوس» و«ايفليا» و«كلوديوس» و«جيرتورد» ـ ضرورة ـ حول هاملت، لما تيسر له أن يعيش مأساته الفنية فى مسرحية «شكسبير»[٢].

P.8.

(١) Merill F.E. & Eldredge H.W.: **Culture and Society: An introduction to Sociology**, (Prentice Hall. N.Y., 1956) P. 250.

والبعد الاجتماعى مع عنصر الصراع الدرامى يمثلان جوهر التعبير عن مشكلات المجتمع فى الدراما الاذاعية والتليفزيونية، وقد عبر «جون جولسورذى» عن ذلك حيث قال: «إن الفن لايكون فناً الا إذا كان مصنوعا مما أحسه الفنان ورآه، لا مما قيل له، إنه يجب أن يحس به ويراه» وهذا الكاتب الانجليزى من أنصار الرأى الذى يلزم الكاتب بأن يأخذ مادته الدرامية من الحياة مباشرة، ويقول فى ذلك «إن الكاتب المبدع إنما يشكل للعالم من مادة حياته نفسها شيئا رائعا، وذلك فى الصورة التى تروقه، متبعا فى هذا التشكيل مزاجه وفطرته هو بالذات»(١).

وإذا كانت الحياة نفسها بتجاربها الكثيرة المتعددة، تمثل الدراما بصورة من الصورة، فإن التجربة الإنسانية مليئة بالأزمات الكبيرة والصغيرة، مكتظة بالحوادث التى يمكن أن تتضخم فى طريقها نحو قمة، أو نحو ذروة تتقرر عندها وجهة من وجهات النظر. ومشكلات المجتمع والعربى مادة يمكن معالجتها دراميا من خلال فنون الدراما التليفزيونية والإذاعية. فالكاتب الماهر ليس بحاجة إلا إلى أن يعرف الناس الذين يعيشون حوله، وما يعانون من مشكلات، ويقوم هو برسم شخصيات قصته على منوالهم، معالجا خلالها ما يعانى الأفراد من مشكلات.

ـ تم بحمد الله ـ

(٢) غنيمى هلال: **المدخل إلى النقد الادبى الحديث**، مرجع سابق، ص ص ٦٧٩ - ٦٨٠.